

كتاب

الامتاع والموائمة

تأليف

أبي حيان التوحيدي

وهو مجموع مسامرات في فنون شتى
حاضر بها الوزير ابا عبد الله العارض في نحو اربعين ليلة

للمرجع الاوّل

صححه وضبطه وشرح عربيّه

أحمد أمين و أحمد الزين

 دار مكتبة الحياة
للطباعة والنشر والتوزيع

مقدمة الناشر

ان من غايات مكتبة الحياة للطباعة والنشر ان تبقى مجلة في كل مضار يرتبط بالكتاب ، مهما اختلف نوعه ومنعاه ، شرط ان يكون ذا قيمة انسانية يسهم في البناء الثقافي العربي المعاصر، وقد الف القراء مفاجآت هذه المؤسسة النشيطة بكتب التراث العربي الضخمة أمثال «الاغاني» لابي الفرج الاصبهاني و«محاضرات الادباء» لابي القاسم حسين محمد الراغب الاصبهاني و«مجمع الامثال» للميداني و«عيون الانباء في طبقات الاطباء» لابن ابي أصيبعة واخيراً الموسوعة التاريخية الادبية الضخمة «شرح نهج البلاغة» لابن ابي الحديد . كما نشرت «معجم من اللغة» للشيخ احمد رضا في خمسة مجلدات . مع عشرات الكتب الماثلة في الادب والفكر ، التاريخ ، يقابلها ثروة من الترجمات العالمية لمفكرين أمثال : اشبنغلر ووايتهد وبرتراند راسل وجان بول سارتر وكامو وجون ديوي وكثيرين غيرهم في حقول مختلفة من اقتصاد وعلم وسياسة وفلسفة وفن الخ.. وغاياتها من هذا النشاط الرصين هي اغناء المكتبة العربية وتهيئة الجوار فيها للكاتب العالمية ، الأمانة الجوار .

وهي اذ تقدم كتاب « الامتاع والموانسة » في حلته هذه فانما تعتبره حلقة من سلسلة في موضوعه تواصل بها رسالتها أمام تراث الحضارة العربية ولخدمة ثقافة العرب المعاصرة .

مقدمة

كتاب الامتاع والموانسة

بقلم : احمد أمين

أبو حيان التوحيدى من أولئك العلماء الأدباء ، الذين أصيبوا فى حياتهم بالبوؤس والشقاء ، وظل حياته يجاهد ويكافح فى التأليف واحتراف الوراقه والنسخ وجوب الأقطار ، يقصد الأمراء والوزراء لعلهم يكافئون علمه وأدبه ، فلم يحظ من كل ذلك بطائل ، وعاش كما يقول فى بعض كتبه على نحو أربعمين درهما فى الشهر أى ما يساوى جنيتها واحداً — مع أنه كما يقول — رأى كل من حوله من العلماء والشعراء يحظون من الأمراء بالمال الكثير والحظ الوافر ، وليس أ كثرهم يدانيه علماً أو يجاريه أدبا . قصد ابن العميد وابن عباد وابن شاهويه وابن سعدان وأبا الوفاء المهندس وغيرهم ، ومدح وأطرى ، وبكى واشتكى ، وهدد وأوعد ، فما نفعه مدحه ولا ذمه ، ولا إطراؤه ولا مجاؤه ، فإن استفاد شئ مما عاناها أبو حيان فإنما هو الأدبُ بما كتب وألف ، وبما حجا واستعطف .

ولم يكن حظه بعد وفاته بأحسن من حظه فى حياته ، فقد عجب ياقوت من أن مؤرخى الرجال لم يترجموا له ، مع أنه فيلسوف الأدباء وأديب الفلاسفة ، ولم نعرف فيما بين أيدينا من الكتب على ترجمة وافية لحياته إلا نتفاً قصيرة وأخباراً ضئيلة .

وأراد هو أن ينتقم من الناس الذين كفروا صنيمه ، وجحدوا علمه وأدبه ، فأحرق فى آخر أيامه كتبه ، وقال : « إني جمعت أكثرها للناس ولطلب المثالة

منهم ، ولعقد الرياضة بينهم ، ولمد الجاه عندهم ، فحُرمتُ ذلك كله... ولقد اضطرت بينهم بعد العشرة والمعرفة في أوقات كثيرة إلى أكل الخضر في الصحراء ، وإلى التكفف الفاضح عند الخاصة والعامة ، وإلى بيع الدين والروءة ، وإلى تماطى الرياء بالسمعة والنفاق ، وإلى ما لا يحسن بالحر أن يرسمه بالقلم ، ويطرح في قلب صاحبه الألم .

قال السيوطى : « ولعل النسخ الموجودة الآن من تصانيفه كتبت عنه في حياته وخرجت من قبل حرقها » .

وكان من شؤمه أنه لم يبق من كتبه التي ألفها — وتبلغ نحو العشرين — إلا القليل ، ولم يطبع منها إلا المقابسات والصدائقة والصديق ، ورسالة في العلوم ، وما بقى منها مخطوطاً ، بل وما طبع منها مملوء بالتحريف والتصحيف إلى حد يقلل من قيمتها والانتفاع بها .

ولعل أقوم كتبه وأنعمها وأتممها كتابه الذي نحن بصددده وهو « كتاب الإمتاع والمؤانسة » .

فهو كتاب ضخم يقع في ثلاثة أجزاء أخذنا أنفسنا بنشره لتعميم نفعه . ولتأليف أبي حيان لهذا الكتاب قصة ممتعة ، ذلك أن أبا الوفاء المهندس كان صديقاً لأبي حيان وللوزير أبي عبد الله العارض ، فقترب أبو الوفاء بأبى حيان من الوزير ، ووصله به ، ومدحه عنده ، حتى جعل الوزيرُ أبا حيان من مُتماره ؛ فسامرهُ سبما وثلاثين ليلة كان يجادته فيها ، ويطرح الوزير عليه أسئلة في مسائل مختلفة فيجيب عنها أبو حيان .

ثم طلب أبو الوفاء من أبي حيان أن يقص عليه كل ما دار بينه وبين الوزير من حديث ، وذكره بنعمته عليه في وصله بالوزير ، مع أنه « أى أبا حيان »

ليس أهلاً لمصاحبة الوزراء لقبح هيئته وسوء عاداته وقلة ممراته وحقارة لبسته ،
 وهدده إن هو لم يفعل أن يفض عنه ، ويستوحش منه ، ويوقع به عقوبته ،
 وينزل الأذى به .

فأجاب أبو حيان طلب أبي الوفاء ، ونزل على حكمه ، وفضل أن يدون ذلك
 في كتاب يشتمل على كل ما دار بينه وبين الوزير من دقيق وجليل وحلو ومر ،
 فوافق أبو الوفاء على ذلك ، ونصحه أن يتوخى الحق في تضاعيفه وأثنائه ،
 والصدق في إirاده ، وأن يطنب فيما يستوجب الإطناب ، ويصرح في
 موضع التصريح .

« فكان من ذلك كتاب الإمتاع والمؤانسة »

من هو الوزير أبو عبد الله العارض الذي ساءمه أبو حيان ؟
 لقد بحث عنه في مظانه فلم أوفق إلى العثور عليه ، وقبل ذلك حني الرحوم
 أحمد زكي باشا بالبحث والسؤال عنه من بعض علماء الشرق والغرب فكان
 حظه حظي .

وأخيراً رجحت أنه هو الوزير أبو عبد الله الحسين بن أحمد بن سعدان
 وزير مصمّم الدولة البويهية ، وقد ورد اسمه هكذا في كل ما راجعت من
 كتب التاريخ أمثال: (تجارب الأمم) وذيله (وابن الأثير) ، ولم يلقيه أحد منهم
 (بالعارض) ؛ وكلمة (العارض) كما في كتاب (الأنساب للسمعاني) معناها : « من
 يعرف المسكر ويحفظ أرزاقهم ، ويوصلها إليهم ويعرضهم على الملك إذا احتيج
 إلى ذلك » فالظاهر أن الوزير أبا عبد الله لقب هذا اللقب إما لأنه تولى هذا
 العمل قبل أن يتولى الوزارة ، أو كان هذا لقباً لأسرته ؛ ودليلي على ذلك أمور:
 (١) أنه ورد في صدر هذا الكتاب أن أبا الوفاء ذكر لأبي حيان :

أنك لما انكفأت من الرمي إلى بغداد في آخر سنة ٣٧٠ مغيظاً من ابن عباد ، وعدتك صلاح حالك ، وأن أوصلك إلى الأستاذ أبي عبد الله العارض ، ثم جاء وصف أبي عبد الله هذا بالوزير .

ونحن إذا رجعنا إلى من استوزر فيما بين سنة ٣٧٠ وسنة ٣٧٥ لم نجد وزيراً يكتفى بأبي عبد الله إلا الوزير أبا عبد الله الحسين بن أحمد بن سعدان ، فقد استوزره مصمص الدولة سنة ٣٧٣ وقتله سنة ٣٧٥ .

(٢) جاء في أثناء كتاب « الإمتاع والمؤانسة » أن أبا حيان قص على الوزير أنه سمع رجلاً على جسر بغداد يقول وقد رأى ابن بقرية الوزير المشهور مصلوباً بعد أن مات عضد الدولة : « سبحان الله ! عضد الدولة تحت الأرض وابن بقرية فوق الأرض » ، فلما سمع الوزير ذلك قال : استأذنت الملك في دفن ابن بقرية فدفن .

وقد ذكر المؤرخون أن ابن بقرية دفن في عهد مصمص الدولة ؛ ولم يكن لمصمص الدولة وزير يكتفى بأبي عبد الله غير ابن سعدان .

(٣) ومما يستأنس به أن أبا حيان كان متصلًا بالوزير ابن سعدان وألف له كتاب « الصداقة والصديق » وقد ذكر في أوائله « أن السبب كان في إنشاء هذه الرسالة أني ذكرت شيئاً منها لزيد بن رفاعة أبي الخير ، فناء إلى ابن سعدان سنة إحدى [وسبعمين] وثلاثمائة قبل تحمله أعباء الدولة وتدييره أمر الوزارة حين كانت الأشغال خفيفة ، والأحوال على أذلالها جارية ، فقال لي ابن سعدان : قد قال لي زيد عنك كذا وكذا . قلت : قد كان ذلك . قال : فدون هذا الكلام وصله بصلاته فجمعت ما في هذه الرسالة » .

فاتصال أبي حيان بابن سعدان وتأليفه له كتاب «الصداقة والصديق» يرجح الظن بأنه هو أبو عبد الله العارض .

نم كان من رجال مصمص الدولة من اسمه أبو الحسن بن عمارة العارض استخدمه مصمص الدولة في السفارة بينه وبين أعدائه أحياناً ، ولكن يبعد أن يكون هو الذي ألف له كتاب الإمتاع والمؤانسة — لأن كنيته أبو الحسن والذي ألف له الكتاب أبو عبد الله — ولأن أبا الحسن لم يكن وزيراً لمصمص الدولة . وفي الكتاب النص في مواضع متعددة على أنه ألفه لوزير .

(٤) ذكر في كتاب « الإمتاع والمؤانسة » أصدقاء أبي عبد الله العارض وعدد منهم ابن زرعة وأبا الوفاء المهندس ومسكويه والأهوازي وبهرام وابن شاهويه ، وأنهم كانوا يلازمونه وأنهم أهل مجلسه ، وعدد في كتاب الصداقة والصديق أصدقاء ابن سعدان فإذا هم^(١) ؛ فأتحد الأصدقاء وتوافقهم واجتماعهم في مجلس وزير يرجح الظن جدا بأن ابن العارض هو ابن سعدان .

(٥) جاء في « كتاب الإمتاع والمؤانسة » أن الوزير سأل أبا حيان عما يقول الناس فيه . فقال له : « سمعت يباب الطاق قوما يقولون : اجتمع الناس اليوم على الشط ، فلما نزل الوزير ليركب الزئب صاحوا وخبجوا وذكروا غلاء القوت وعوز الطعام وتعذر الكسب وغلبة الفقر ، وأنه أجابهم بجواب مُرّ مع قطوب الوجه وإظهار التبرم » .

وهذه الأوصاف كلها تنطبق على ما ذكره أبو شجاع في كتابه « ذيل تجارب الأمم » عن حادثة جرت لابن سعدان .

وابن سعدان هذا استوزره صمصام الدولة البويهى سنة ٣٧٣ لما تقلد الأمور بعد وفاة أبيه عضد الدولة . جاء فى كتاب « ذيل تجارب الأمم لأبى شجاع : « وفيها [أى فى سنة ٣٧٣] خلع على أبى عبد الله الحسين بن أحمد بن سعدان خلع الوزارة — وكان رجلاً باذلاً لعطائه ، مانماً للقائه ، فلا يراه أكثر من يقصده إلا ما بين نزوله من درجة داره إلى زبزه^(١) ؛ ومع ذلك فلا ينجيب طالب إحسان منه فى أكثر مطلبه فبسط يده فى الإطلاقات والصلوات وأحدث من الرسوم استيفاء العشر من جميع ما تسبب به الأولياء والكتّاب والحواشى من أموالهم وأرزاقهم وانضاف إلى ضيق خلقه ما اتفق فى وقت نظره من غلاء سعر ، فتطيرت العامة ورجوا زبزه ، وشغبوا الديلم عليه ، وهجموا على نهب داره ، وابتعثت الحال إلى ركوب صمصام الدولة إلى مجتمعمهم حتى تلافاهم وردّم^(٢) . »

وقد ظل ابن سعدان فى الوزارة إلى سنة ٣٧٥ حتى ظهر له خصم هو أبو القاسم عبد العزيز بن يوسف ، فظل يكيد له وينصب الشباك للإيقاع به .

وحدث أن ابن سعدان أراد أن يعين أباه كاتباً لوالدة صمصام الدولة لما مات كاتبها ، فقال أبو القاسم لصمصام الدولة : « إن ابن سعدان قد استولى على أمورك ، وملك عليك خزائنك وأموالك ، فإذا تم له حصول والده مع السيدة حصلنا تحت الحجر معه^(٣) . » وتمت المكيدة ولم يعين أبوه . ثم قبض على ابن سعدان وأصحابه وأودعوا السجن ، واستوزر صمصام الدولة هذا الراشى

(١) الزبزه : ضرب من السفن .

(٢) ص ٨٥ .

(٣) ص ١٠٣ .

أبا القاسم عبد العزيز بن يوسف ، ولم يكتب أبو القاسم بمحبس ابن سعدان فاتهز فرصة خروج نائر على صمصام الدولة اسمه « أسفار بن كردويه » يريد خلعها ، ففس أبو القاسم إلى صمصام الدولة أن ابن سعدان متصل بهذا النائر وأن الندي جرى كان من فعله وتدييره ، وأنه لا يُؤمن ما يتجدد منه في محبسه ، فأمر صمصام الدولة بقتله ، فقتل سنة ٣٧٥

وكان لابن سعدان ناحية أخرى علمية أدبية يصورها أبو حيان في كتبه ، فهو واسع الاطلاع ، له مشاركة جيدة في كثير من فروع العلم من أدب وفلسفة وطبيعة وإلهيات وأخلاق ، يدل على ذلك حواراه الذي يحكيه أبو حيان في كتابه الإمتاع والمؤانسة والمقاسبات ، فهو يسأل أسئلة عميقة ، وينقد الإجابة عنها نقداً قيمياً .

وفوق ذلك كان له في وزارته منتدى يجمع كثيراً من جلة العلماء والأدباء منهم ابن زرعة الفيلسوف النضرائي ، وابن مسكويه صاحب (تهذيب الأخلاق) (وتجارب الأمم) ، وأبو الوفاء المهندس الذي سنتحدث عنه ، وأبو سعد بهرام بن أردشير ، ومن الشعراء ابن حجاج الشاعر الماجن المشهور ، ومن الكتاب أبو عبيد الخطيب الكاتب ، وأبو حيان صاحبنا .

وكان له مجلس شراب يجلس إليه بمض هؤلاء فيتفكروا ويتناقدون ويذهبون في فنون الحديث كل مذهب ، ومجلس جد يتحاورون فيه ويتناقشون في الفلسفة والأخلاق والأدب .

وكان يباهى بمجلسه ويفخره على مجالس الأسماء المعاصرين له ، مثل المهلبى وابن العميد والصاحب بن عباد . فيقول في أصحابه هؤلاء : « ما لهذه الجماعة بالعراق شكل ولا نظير ، . . . وأن جميع ندماء المهلبى لا يفون بواحد من

هؤلاء ، وأن جميع أصحاب ابن العميد يشتهون أقل من فيهم ، وأن ابن عباد ليس عنده إلا أصحاب الجدل الذين يشغبون ويحمقون ويتصايحون^(١) . فلا عجب — إذن — أن يكون من نتاج ابن سعدان الوزير العالم هذا الكتاب الذي نحن بصدده ؛ كتاب « الإمتاع والمؤانسة » .

وأما أبو الوفاء الذي وصل أبا حيان بابن سعدان والذي ألف أبو حيان له كتاب « الإمتاع والمؤانسة » ودون له فيه كل ما دار بينه وبين الوزير في سبع وثلاثين ليلة ، فهو محمد بن محمد بن يحيى البوزجاني . ترجم له ابن النديم في (الفهرست) وابن خلكان في (وفيات الأعيان) ؛ وقال فيه هذا الأخير : « إنه أحد الأئمة المشاهير في علم الهندسة ، وله فيه استخراجات غريبة لم يسبق بها ، وكان شيخنا العلامة كمال الدين أبو الفتح موسى بن يونس — وهو القيم بهذا الفن — يبالغ في وصف كتبه ، ويعتمد عليها في أكثر مطالعاته ويحتج بما يقوله وكان عنده من تأليفه عدة كتب وكانت ولادته سنة ٣٢٨ بمدينة بوزجان ، وقدم العراق سنة ٣٤٨ ، وتوفي سنة ٣٧٦ » . وقد ذكر ابن خلكان أنه نقل تاريخ الوفاة هذا من شيخه ابن الأثير . ولكن الذي في ابن الأثير أنه عدّ وفاته في حوادث سنة ٣٨٧ ، فإما أن ابن خلكان أخطأ في النقل أو أن الناسخ أخطأ في الكتابة .

وكان أبو الوفاء هذا من ندماء ابن سعدان كما تقدم ، وقد وصفه ابن سعدان في جملة ما وصف من أصحابه . فقال : « وأما أبو الوفاء ، فهو والله ما يقعد به عن المؤانسة الطيبة والمساعدة للطربة والمفاكهة اللذيذة والمواتاة الشبية ، إلا أن لفظه خراساني ، وإشارته ناقصة ، هذا مع ما استفاده بمقامه الطويل ببغداد ، والبغدادي

إذا تخرسن كان أعلى وأظرف من الخراساني إذا تبغدد^(١) .

إلى هنا رأينا أن الكتاب ألف لأبي الوفاء المهندس ، نقل فيه أبو حيان ما دار بينه وبين ابن سعدان . ولكن التقطى في كتابه « أخبار الحكماء » عند ترجمته لأبي سليمان المنطقي أورد كلاماً يناقض ما نقول ، سواء في ذلك من ألف له الكتاب ، ومن دار الحديث بينه وبين أبي حيان .

فقد ذكر : « أن أبا سليمان كان أعور ، وكان به وَصَح ، وكان ذلك سبب انقطاعه عن الناس ولزومه منزله ، فلا يأتيه إلا مستفيد وطالب علم ، وكان يشتهي الاطلاع على أخبار الدولة وعلم ما يحدث فيها وكان أبو حيان التوحيدى من بعض أصحابه المتصمين به ، وكان يقشى مجالس الرؤساء ويطلع على الأخبار ، ومهما علمه من ذلك نقله إليه وحاضره به ، ولأجله صنف كتاب « الإمتاع والمؤانسة » نقل له فيه ما كان يدور في مجلس أبي الفضل عبد الله بن العارض الشيرازى عند ما تولى وزارة صمصام الدولة بن عضد الدولة^(٢) . وأنا أرجح خطأ التقطى في الوجهين معاً .

فأما في الأول : فإن النسخة التي بيدي تذكر أنه ألفه لأبي الوفاء المهندس لا لأبي سليمان المنطقي . ويقول في صدر الكتاب : إنه ألفه رداً لجميل أبي الوفاء إذ كان هو الذي أوصله لأبي عبد الله . وعندما يأتي ذكر أبي الوفاء في ثنايا الكتاب ، ويسأل أبو عبد الله أبا حيان عن رأيه فيه يمدحه ويثنى عليه ، ويقول : كيف أذمه وهو الذي أوصلني بك ، وقد سبق أن أثبتنا أن أبا الوفاء كان من ندماء أبي عبد الله .

(١) الصداقة والصديق ٣٢ .

(٢) أخبار الحكماء ص ٧٨٣ .

ودليل آخر ، وهو أن أبا حيان في بعض كلامه في الكتاب يستجدي من ألف له الكتاب ، وقد كان أبو الوفاء المهندس في منزلة تسمح له بذلك ، فإنه رجل جليل القدر يلقبه الوزير بشيخنا . أما أبو سليمان فكان فقيراً كما ذكر ذلك أبو حيان في هذا الكتاب ، وكانت صلة أبي حيان به صلة علمية لا صلة مالية ، فمن البعيد جداً أن يستجديه أبو حيان .

ودليل ثالث : وهو أن الوزير أبا عبد الله سأل أبا حيان في الكتاب عن أبي سليمان هذا ، فذكر له أوصافه ، وفيها ما هو عيب لأبي سليمان كقوله : إنه يجتمع مع قوم للشراب ، ويذكر بعضهم الوزير بالسوء ، فلو كان أبو حيان ألقه لأبي سليمان لكان بعيداً كل البعد أن يذكر هذا الحديث .

ودليل رابع : وهو أن أبا حيان ينقل في كتابه هذا عن أبي سليمان ، ويذكر آراءه ، وينقل بعض رسائله إلى الوزير ، ولو كان يؤلف الكتاب لأبي سليمان لاستغنى عن ذكر ما يعرفه أبو سليمان عن نفسه من أقواله ورسائله ، ولكن أبو حيان في ذلك كمن ينقل إلى البئر ماءه ، وإلى الكنز ذهبه ، وهذا غير مألوف ولا مستساغ .

لهذا كله نرجح خطأ القفطي فيما ذهب إليه من أنه ألقه لأبي سليمان المنطقي . كما نرجح خطأه في الشق الثاني ، وهو أن أبا حيان دون فيه ما كان يدور بينه وبين أبي الفضل عبد الله بن العارض الشيرازي وزير صحصام الدولة . ذلك لأن النسخة التي بين أيدينا يذكر فيها أبو حيان أنه دون فيه ما دار بينه وبين أبي عبد الله العارض لأبي الفضل عبد الله بن العارض . وقد راجعنا كتب التاريخ التي بين أيدينا وأحصينا فيها من تولى الوزارة لصمصام الدولة ، فلم نجد من بينهم أبا الفضل عبد الله بن العارض الشيرازي الذي ذكره القفطي

وكما تقول دائرة المعارف الإسلامية في مادة أبي حيان تبعاً له .

نعم رأينا من يسمي أبا الفضل الشيرازي ، وكان يعيش في هذا العصر ولكن اسمه أبو الفضل محمد بن عبد الله بن المرزبان الشيرازي لا أبو الفضل عبد الله الشيرازي كما يقول القفطي . وكان هذا كاتباً لا وزيراً ، وكان صديقاً لأبي علي الحسن التنوخي ، ونقل عنه كثيراً في كتابه « نشوار الحضرة » ولقبه الكاتب لا الوزير . والذي ألف له الإمتاع والمؤانسة وزير لا كاتب .

يضاف إلى ذلك ما ذكرنا قبل من البراهين .

فالكاتب — في رأينا — كتب لأبي الوفاء المهندس لا أبي سليمان المنطقي ودون فيه ما دار في مجلس ابن سعدان لا أبي الفضل الشيرازي .

وصف الكتاب : قال القفطي في وصفه : « وهو كتاب ممتع على الحقيقة لمن له مشاركة في فنون العلم ، فإنه خاض كل بحر ، وغاص كل لجة ، وما أحسن ما رأيت على ظهر نسخة من كتاب الإمتاع بخط بعض أهل جزيرة صقلية وهو : ابتداء أبو حيان كتابه صوفياً وتوسطه محدثاً ، وختمه سائلاً ملحقاً^(١) » .

قسم أبو حيان كتابه إلى ليال ، فكان يدون في كل ليلة ما دار فيها بينه وبين الوزير على طريقة قال لي وسألني وقلت له وأجبتة . وكان الذي يقترح الموضوع دائماً هو الوزير . وأبو حيان يجيب عما اقترح ، وكان الوزير يقترح أولاً موضوعاً حسبما اتفق وينتظر الإجابة ؛ فإذا أجاب أبو حيان أثارته إجابته أفكاراً ومسائل عند الوزير فيستطرد إليها ويسأله عنها ، فقد يسأله سؤالاً يأتي

(١) أخبار الحكماء ٢٨٣ .

في أثناء الإجابة عنه ذكر لابن عباد أو ابن العميد أو أبي سليمان المنطقي ، فيسأله الوزير عنهم وعن رأيه فيهم ، وهكذا ، يستطرد من باب لباب ، حتى إذا انتهى المجلس كان الوزير يسأله غالباً أن يأتيه بطفرة من الطرائف يسميها غالباً : « ملححة الوداع » فيقول الوزير — مثلاً — : إن الليل قد دنا من فجره ، هات ملححة الوداع . وهذه الملححة تكون — عادة — نادرة لطيفة أو أبياتا رقيقة ، وأحياناً يقترح الوزير أن تكون ملححة الوداع شعراً بدوياً يشم منه رائحة الشيخ والقيصوم وهكذا .

وأحياناً يكلفه الوزير أن يتم له المسألة المعروضة في رسالة ؛ فقد سأله مرة عن المصادر التي تجيء على وزن تفعال ، فأجابه أبو حيان عن بعضها ، ثم طلب منه الوزير أن يجمع له ما جاء في اللغة منها .

وأحياناً يتخذ الكلام شكل حوار . فأبو حيان — مثلاً — يروي عن ديوجانيس أنه سئل : متى تطيب الدنيا ؟ . فقال : « إذا تفلسف ملوكها ، وملك فلاسفتها » ؛ فلم يرض الوزير عن هذا ، وقال : إن الفلسفة لا تصح إلا لمن رفض الدنيا وفرغ نفسه للدار الآخرة ؛ فكيف يكون الملك رافضاً للدنيا وقالياً لها ، وهو محتاج إلى سياسة أهلها ، والقيام عليها باجتلاب مصالحها ونفي مفاسدها ! — وأطال في ذلك — وفي كثير من الأحيان يعلق الوزير على إجابة أبي حيان بالاستحسان أو الاستهجان مع ذكر أسباب ذلك .

وأحياناً يطلب إليه الوزير أن يحضر له رسالة في موضوع ، ثم يتلوها عليه في جلسة مقبلة كما فعل مرة ، إذ كلفه أن يكتب له في المجون والملح ، ففعل أبو حيان وقرأها عليه في مجلس . قال أبو حيان : « فلما قرأتها على الوزير قال : ما علمت أن مثل هذا الحجم يحوى هذه الوصايا والملح » .

وأونة يثير الوزير مسائل أشكلت عليه في اللغة والفلسفة والاجتماع ،
يعرضها على أبي حيان ويطلب منه الجواب فيفعل .

ويحدث أحياناً أن الوزير يدفع لأبي حيان برقعة فيها أسئلة يطلب إليه
أن يفكر في الإجابة عنها ، ويتصل بغيره من العلماء ليأخذ رأيهم فيها ؛ كما حدث
مرة أنه دفع إليه رقعة بخطه فيها مطالب ، وقال : باحث عنها أبا سليمان
وأبا الخير ، ومن تعلم أن في محاورته فائدة . وكان في الرقعة أسئلة منها عن الروح
وصفته ومنفعته ، وما المانع أن تكون النفس جسماً أو عرضاً أو هباء ؛ وهل تبقى ؟
وإن كانت تبقى فهل هي تعلم ما كان الإنسان فيه ههنا الخ . ويقول الوزير في آخر
هذه الرقعة : « إن هذا وما أشبهه شاغل لقلبي وجائهم في صدري ، ومعارض بين
نفسى وفكرى ، وما أحب أن أبوح به لكل أحد » ؛ ويأمره بأن يكتب خطه
فإن أراد أن يعرض هذه المسائل مكتوبة على أبي سليمان فلينسخها بخطه هو . ثم
سأل أبو حيان أبا سليمان وذكر إجابته عنها ونقلها إلى الوزير ، وعلى هذا النمط
يجرى تأليف الكتاب .

وموضوعات الكتاب متنوعة تنوعاً ظريفاً لا تخضع لترتيب ولا تبويب ،
إنما تخضع لخطرات العقل وطيران الخيال وشجون الحديث . حتى لنجد في
الكتاب مسائل من كل علم وفن ؛ فأدب وفلسفة وحيوان ومجون وأخلاق وطبيعة
وبلاغة وتفسير وحديث وغناء ولغة وسياسة وتحليل شخصيات لفلاسفة العصر
وأدبائه وعلمائه وتصوير للعادات وأحاديث المجالس ، وغير ذلك مما يطول شرحه .

فلما أراد أبو حيان أن يدون لأبي الوفاء ما دار بينه وبين الوزير زاد فيه ونمق
الحديث . وكان يدون جزءاً ويرسله إلى أبي الوفاء ويتبعه بجزء آخر وهكذا ...

وحدث هو نفسه عن ذلك كله في أول الجزء الثاني فقال : « قد فرغت من الجزء الأول على ما رسمت لي القيام به ، وشرفتنى بالخوض فيه ، وسردت في حواشيه أعيان الأحاديث التي خدمت بها مجلس الوزير ، ولم آل جهداً في روايتها وتقويمها ، ولم أجنح إلى تعمية شيء منها ، بل زبرجت كثيراً بناصع اللفظ مع شرح الغامض ، وصللة المحذوف ، وإتمام المنقوص ، وحملته إليك على يد « فائق » الغلام ، وأنا حريص على أن أتبعه بالجزء الثاني ، وهو يصل إليك في الأسبوع إن شاء الله .

وقد خاف أبو حيان من بعض ما ورد في الكتاب ؛ فإنه في حديثه مع الوزير عاب أشخاصاً من رجال الدولة الذين يستطيعون إيذائه ، فرجا أبا الوفاء أن يحفظ هذا الكتاب سرا ، فقال : « وأنا أسألك ثانية على طريق التوكيد كما سألتك على طريق الاقتراح أن تكون هذه الرسالة مصونة عن عيون الحاسدين العمييين ، بعيدة عن تناول أيدي المفسدين المنافسين ، فليس كل قائل يسلم ، ولا كل سامع ينصف » .

وقد أنجز أبو حيان وعده ، وأرسل إليه الجزء الثاني على يد غلامه فائق أيضاً . ثم أرسل إليه الجزء الثالث وهو الأخير ، وقال في أوله : « قد أرسلت إليك الجزئين الأول والثاني . وهذا الجزء — وهو الثالث قد والله ألقيت فيه كل ما في نفسي من جد وهزل ، وغث وسمين ، وشاحب ونضير ، وفكاهة وأدب ، واحتجاج واعتذار ولأنه آخر الكتاب ختمته برسالة وصلتها بكلام في خاص أمري » .

وعلى هذا الوضع ينتهي الكتاب .

ولست أستبعد أن يكون أبو حيان قد تزيد فيه ، واخترع أشياء لم تجر في

مجلس الوزير ، فقد عرف عنه أمثلة من هذا القبيل ، فقد اتهمه العلماء من قبل ومنهم ابن أبي الحديد بأنه وضع الرسالة المشهورة المعروفة إلى أبي عبيدة على لسان أبي بكر وعمر في حق علي بن أبي طالب ، ولعل هذا التزويد كان من ضمن الأسباب التي دعته أن يرجو أبا الوفاء في أن يكون الكتاب سرا ، فإنه ألف الكتاب في حياة الوزير ، وخشى أن الوزير يطلع عليه فيعلم مقدار ما تزويد . أما أنه ألفه في حياة الوزير ، فالدليل عليه ما جاء في نسخة ميلانو : « أنشئت هذه الرسالة في رجب سنة ٣٧٤ » والوزير ابن سعدان ظل وزيراً من سنة ٣٧٣ إلى سنة ٣٧٥ كما تقدم .

وأيا ما كان ، فالكتاب ممتع مؤنس كاسمه ، يلقي نوراً كثيراً على العراق في النصف الثاني من القرن الرابع — أعني في العصر البويهى — وهو عصر مغش بالظلام فإنه يتعرض لكثير من الشؤون الاجتماعية في ثنايا حديثه ، فيصف الأمراء والوزراء ومجالسهم كابن عباد وابن العميد وابن سعدان ، ومجالسهم ومساوئهم ، ويصف العلماء ، ويحلل شخصياتهم ، وما كان يدور في مجالسهم من حديث وجدال وخصومة وشراب ، ويصف النزاع بين المناطقة والنحويين كالمناظرة الممتعة التي جرت بين أبي سعيد السيرافي ومثى بن يونس القنأى في المفاضلة بين المنطق اليونانى والنحو العربى ، ورأى العلماء في الشعوية والمفاضلة بين الأمم ، إلى كثير من أمثال ذلك .

وفي الكتاب النص الوحيد الذى كشف لنا عن مؤلفي إخوان الصفاء ، وقد نقله القفطى منه ، إذ كان الوزير قد سأل أبا حيان عن هذه الرسائل ومن ألفها ؛ وعن القفطى نقله كل من كتبوا عن إخوان الصفاء .

كما أن فيه فوائد كثيرة عن الحياة السياسية للدولة ، فهو يصف كثيراً حالة الشعب في عصره وموقفهم من الأسماء والملوك ، وهيجانهم واضطرابهم وأسباب ذلك .

وكما يعرض أحياناً للحياة الاجتماعية الشعبية فيذكر عدد القينات في الكرخ فيقول : « ولقد أحصينا في سنة ٣٦٠ : ٤٦٠ جارية من القينات ومائة وعشرين من الحرائر ، وخمسة وتسعين من الصبيان الذين يجمعون بين الخدق والحسن . هذا سوى من كنا لا نظفر به ولا نصل إليه لعزته ورقبائه ، وسوى ما كنا نسمعه ممن لا يتظاهرون بالغناء بالضرب إلا إذا نشط أو ثمل في حال أو خلع العذار في هوى » . وأطيل جدا لو وصفت ما في الكتاب من فوائد .

ثم إن أسلوبه في تقسيمه إلى ليال ، وذكره ما دار في كل ليلة على سبيل الحديث والحوار ، يجعله لذيذاً شيقاً ، أو على حد تعبيره هو — ممتعاً مؤنساً — فهو أشبه شيء بألف ليلة وليلة ، ولكنها ليست ليالى للهو والطرب وكيد النساء ولعب الغرام ، إنما هي ليال للفلاسفة والمفكرين والأدباء ، إذ يتعرض فيه لأهم مشاكل الفلاسفة ، كالبحث في الروح والعقل والقضاء والقدر وما إلى ذلك ، كما يتعرض لمشاكل البلغاء كالليلة البديعة التي جرى فيها الحديث عن النثر والنظم والمفاضلة بينهما ، ومزايا كل ونقصه وهكذا . فإن كان ألف ليلة وليلة يصور أبداع تصوير الحياة الشعبية في ملاحمها وفتنمها وعشمتها ، فكتاب الإمتاع والمؤانسة يصور حياة الأرستقراطيين أرستقراطية عقلية ؛ كيف ينحنون ، وفيم يفكرون ، وكلاهما في شكل قصصى مقسم إلى ليال ، وإن كان حظ الخيال في الإمتاع والمؤانسة أقل من حظه في ألف ليلة وليلة .

وأسلوب أبي حيان في الكتاب أسد رب أدبي راق كههدنا في كل كتابته ؛
 يجب الازدواج وبطيل في البيان ، ويحتذى حذو الجاحظ في الإطناب والإطالة
 في تصوير الفكرة ، وتوليد المعاني منها حتى لا يدع لقائل بعده قولاً ؛ ولكن
 أغمض أسلوبه في هذا الكتاب تعرضه كثيراً لمسائل فلسفية عميقة قد عزت
 على البيان ، ودقت عن الإيضاح ، فإذا هو خرج عن هذه الموضوعات الدقيقة
 إلى موضوعات أدبية : كوصف لفقره وبؤسه ، أو وصف للكرم وفوائده ،
 أو وصف للسان والبيان ؛ جرى قلمه وسال سيله وأجاد وأبدع .

نسخ الكتاب : للكتاب — فيما أعلم — نسختان ، لا أعلم لهما في مكاتب
 العالم نالته .

فأما النسخة الأولى فكاملة ، وهي تقع في خمسة أقسام .

وقد جاء في طرة الجزء الثاني ما نصه : « رسم لخزانة السلطان الأعظم ، مالك
 رقاب الأمم ، مولى ملوك العرب والمعجم ، باسط الأمن والأمان ، ناشر العدل
 والإحسان ، أبي المفاخر فخر الدنيا والدين سليمان بن غازي « محمد الأيوبي » خلد
 الله تعالى مملكته وسلطانه ، وأعلى في الخافقين عزه وبرهانه . »

فالجزء الثاني كتب للمادل سليمان بن غازي الأيوبي .

وكان المادل سليمان أديبا شاعرا ، جاء في (كشف الظنون) ذكر كتاب
 اسمه « الدر الثمين في شعر الثلاثة السلاطين » وهم : « المادل سليمان الأيوبي وولده
 الأشرف أحمد وولده الكامل خليل » . فسليمان هذا هو صاحب الخزانة
 المكتوب هذا الجزء برسمها .

وجاء في آخر هذا الجزء : « تمت الجزء الثاني من كتاب المؤانسة والإمتاع بحول الله وحسن توفيقه في شوال سنة خمسة عشر وثمانمائة على يد أضعف العباد شرف بن أميره في حصن المحروسة سماها الله تعالى عن الآفات والماهات آمين يارب العالمين » .

وخط الجزء الثاني (وهو في ثلاثة مجلدات) يخالف لخط الجزء الأول (وهو في مجلدين) ، وإن كان الخطان قريبين الشبه ببعضهما ببعض ، والجزء الأول غير مضبوط ، والثاني مضبوط بالضبط الكامل . وكلا الجزئين مملوء بالأخطاء الخطيرة بالزيادة والنقص والتحريف ، ويظهر أن الكاتبين من الخطاطين الذين يجيدون الخط ولا يحسنون الفهم . وكاتب الجزء الثاني يغلب على الظن أنه تركي لا يحسن العربية فهو يقول : « تمت الكتاب » « لا تم الكتاب » . ويقول « في سنة خمسة عشر وثمانمائة » بدل « خمس عشرة » وهذه — مع الأسف — هي وحدها النسخة التامة .

وهذه النسخة أخذها المرحوم أحمد زكي باشا بالفتوغرافيا من مكتبة طوب قبر سراى لما اطلع على الكتاب وعرف قيمته . وقد أحضر النسخة الفوتوغرافية معه إلى القاهرة ، واحتفظ بها في مكتبته الخاصة ؛ وقد قرأ الكتاب ، ووضع في الصفحة الأولى من كل جزء فهرسا بمدد الليالي وبعض الموضوعات ، كما وضع أسماء الأعلام الواردة في الكتاب أمام كل صفحة ، مما يدل على أنه كان يريد نشره ، ويريد ترجمة الأعلام التي وردت فيه ولكن لم يتعرض لتصحيح شيء مما فيه من أغلاط . وقد توفي — رحمة الله — وهي في مكتبته الخاصة ، فاشتراها السيد حمدى السبرجلاني الدمشقي ، وباعها لدار الكتب المصرية .

والنسخة الثانية نسخة فوتوغرافية أخذت من أصل في ميلانو ، وليست كاملة ، وإنما هي قطع ثلاث : قطعتان من الجزء الثاني وقطعة من الجزء الثالث وهي مشوشة غير مرتبة ، وقد استحضرها زكي باشا أيضا ، واحتفظ بها لنفسه ، ثم بيعت لدار الكتب .

ولم يذكر في أية قطعة من القطع تاريخ نسخها ، وخطها واضح وجميل أيضا ومضبوطة . ولكنها في جملتها لا تقل في الأخطاء عن سابقتها .

وقد كان في نية السيد حمدي السمرجلاني نشر المخطوطة قبل بيعها لدار الكتب ، فاستنسخ نسخة منها ، وقرأها مع بعض أفاضل دمشق ، منهم الدكتور حسني سبوح والسيد رشدي الحكيم وخليل مردم بك ؛ واستظهروا بعض تصحيحات لما وجدوه في هذه النسخة من تحريف .

ونقيت بعد ذلك مملوءة بالأغلاط كثيرة الجمل والألفاظ التي تشبه الألفاظ حتى لا يخلو سطر منها من وقفات تستدعي الجهد الشديد في تصحيحها . ففرض على لجنة التأليف نشره ، فوافقت على ذلك ، وعهدت إلى كاتب هذه السطور والأستاذ أحمد الزين بتصحيحه ؛ وقد بذلنا مما جهدنا كثيرا في تصحيح المحرف من ألفاظه ، وتفسير غريبه ، وشرح المشكل من عباراته ، وتكميل الناقص من جملة ، وضبط الملتبس من كلماته ، والتعريف بكثير ممن ورد ذكرهم فيه من العلماء والأدباء والشعراء والفلاسفة ، وهذا هو جهدنا تقدمه للقراء .

ومع هذا فربما نكون قد أخطأنا الصواب أو أغفلنا بعض المحرف ، وقد أثبتنا ألفاظه المحرفة في حواشي صفحاته . ويلاحظ أننا في أكثر الأحيان ثبت اللفظ المحرف وحده غير منبهين على أنه محرف اتكالا على فهم القارئ ، وفي بعض الأحيان نفيه على أنه تحريف وأن صوابه ما أثبتنا ؛ كما يلاحظ أننا

قسمنا كل ليلة من ليالي هذا الجزء إلى موضوعات ، مثبتين في أول كل موضوع رقما يدل عليه .

فنحن ننشر الجزء الأول من الكتاب اعتمادا على نسخة طوب قبو سراى وحدها ، حتى إذا وصلنا إلى الجزء الثاني أمكننا الانتفاع بنسخة ميلانو .
ولعلنا بهذا النشر نحسن إلى أبي حيان بالتعريف بقيمته ، والإشادة بذكوره ، بعد أن أساء إليه الزمان ، فأماته في حياته ، وأخذ اسمه بعد وفاته ؛ كما نحسن إلى عصره فنلقى عليه بعض الضوء ، وقد اكتنفه الظلام ، وعفت على آثاره الأيام ، والسلام .

أحمد أمين